كلمة آل الفقيد
يلقيها نجلُه المهندس مصعب نبهان

الأستاذ الدكتور مروان المحاسني رئيس مجمع اللغة العربية الموقر
السادة أعضاء المجمع
الحفل الكريم:
السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

تشاءُ إرادةُ الله تعالى أن ألقي هذه الكلمةَ، وأنا بعيد عنكم وعن بلدي وعن مدينتي التي ارتبطت بها وارتبط بها والدي الحبيب، رحمه الله، ألقي هذه الكلمة من مصر الشقيقة التي أحبها والدي، وعاش فيها بعض الوقت مرتحلًا وراء المعرفة والعلم اللذين وَقَفَ لهما حياتَه، بقدر ما وَقَفَها للمحبة والخير والنبل والقيم السامية التي كانت معيارًا يحتكمُ إليه في مسيرته العلمية والإنسانية الثرية.

نحن لا نتصور فقْد أحبتِنا، وكأنما العقل يُلغي هذا الاحتمال وينفيه، على الرغم من شواهده الماثلةِ كلَّ يوم. لذا يكون رحيلهم مباغتًا.. صادمًا.. عصيًّا على التصديق. فلا تستوعب عقولُنا، مهما عركتنا التجاربُ والأيام، أن يغيبَ الأحبةُ بعد أن كانوا ملءَ القلبِ والسمع والبصر. ولا أعتقد أن آلامَ

فقدِ الوالدِ الراحل قد اقتصرت على أهله وذويه، بل كان الألم بقدر ما تركه من محبةٍ واحترامٍ في قلوب أصدقائهِ وزملائه وتلاميذه وجيرانه، إذ كان يملك الميزةَ الإنسانيةَ الفريدةَ التي تجعل الإنسان قريبًا من قلوب الناس، فكأنما صدقَ عليه قول الله، جلّ وعلا: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾ [طه: ٣٩]. ولقد كان ما حظي به من حب من الناس انعكاسًا لحبه لهم.

لم تكن مصادفةً دراسةُ والدي للغة العربية، بكل ما تمثله من أصالة وعراقة واعتزاز بالذات وانتماءٍ إلى الجذور، بل كانت اختيارًا واعيًا أقبل عليه بملءِ إرادته، ووَقَفَ حياتَه لأداء رسالة آمن بجلالها، فكان واحدًا ممن تركوا بصماتٍ لا تنسى، لا تعود فقط إلى علمه الغزير ومعرفته الأصيلة التي كان يصل الليل بالنهار من أجل صقلها وتنميتها، بل تعود بالقدْر ذاتِه إلى الروحِ التي كان يؤدي بها رسالته أستاذًا آمن بما يفعل، وأفنى نفسه فيه راضيًا، لأن هذه الروح هي التي تمنح طاقة الاستمرار والتوهج التي احتفظ بها الوالدُ الراحلُ حتى اللحظاتِ الأخيرةِ من حياته.

آمن الوالدُ بالتراث الذي أجله أعظم الإجلال، وأدرك أيَّ حديقة غناء عامرة بالورود والرياحين والخضرة اليانعة تحملها تلك الأسفارُ التي رآها أول ما رآها في مكتبةِ جدّه، العالمِ الضريرِ الذي كان حفيدُه يقرأ له الكتب وهو دون العاشرة من عمره. ولكن هذا الإيمانَ العميقَ بالتراث لم يمنعه من أن ينفتحَ على المدارسِ والاتجاهات الحديثة في اللغة، بل كان أساسًا متينًا لإنتاج رؤية تجمعُ في توازن دقيق، شهدَ به زملاؤه وطلابُه، بين هذا وذاك.

هذا التوازن ذاته كان سمة للوالد في جوانب شتى من حياته، إذ كان بشوشًا أجمل ما تكون البشاشة، حلو العِشْرة، قريبًا من الجميع، لكنه مع كلِّ هذا القربِ احتفظ بمهابة لا تُخطئُها العين، وكان قادرًا على يكون صديقًا

لطلابه دون أن ينتقصَ ذلك من جلال موقع الأستاذ والعالم. وكان حاضر البديهة وقادرًا على صياغة الدعابة الرقيقة الذكية دون أن يمسَّ مشاعر إنسان، ذلك أنه كان يُنزل إيذاء مشاعرِ الناسِ منزلةَ الخطأِ الفادحِ فلا يقربه أبدًا.

وكان، طيب الله ثراه، كثيرَ الثناء على أساتذته الذين تلمذ لهم، حريصًا على إحياء سنتهم في الاحتفاء بالموهوبين من تلامذتهم، ففتح لطلبته صدره قبل بيته، وكنا نحن شاهدين على جلساته معهم، وما فيها من ود واحترام، ونقاشات علمية جادة ومتنوعة.

أما نحن، أهلَ بيته، فهو لم يكن لنا بصدره الرحب الأب فحسب، بل الصديق والأستاذ والمدرسة الكبرى التي تحضن وتربي، وكان لنا المثل الأعلى بالمحبة والوفاء لأساتذته وأصدقائه ولعلماء العربية وحملة ألويتها. وكان الصّورة الأنصع في التواضع واحترام الآخرين، والقدوة الأولى في حب العلم والمطالعة، وقد كان له في جلوسه الطويل بين كتبه متعة ما بعدها متعة، شغوفًا عاشقًا لمكتبته لا يشغله عنها شاغل يغوص بين رفوفها منتقلًا من كتاب لآخر، يرشف من رحيق كل كتاب رشفة، وكأنه يخشى أن تفوته قراءته، فتارة مع كتب اللغة وعلومها، وتارة مع التراث والمخطوطات، وأخرى مع علوم القرآن والحديث، وأحيانًا مع الشعر والملاحم، ولا تفوته الكتب العلمية ولا الروايات ولا كتب النقد على اختلاف مدارسه.

والدي الحبيب:

أنت خير من يقدّر ما فيّ من إرباك في هذه اللحظات، فلتكن ابتسامة الرضا التي عهدناها على محياك، شفيعًا لي عند أساتذتك ومحبيك الذين اجتمعوا اليوم وفاء لك، واعذرني إن قصّر البيان وارتجف القلب واللسان،

وأنى لمثلي أن يعبر عما في صدر والدتي الحنون وأخواتي الثلاث شقيقات الروح، وقد بلغ منا الحزن مبلغه، فلا يكاد قول يصف حالنا أفضل من بيت أبي الطيب:

بنا منكَ فوقَ الرملِ ما بكَ في الرملِ وهذا الذي يُضني كذاكَ الذي يُبلي

أيها الحفل الكريم:

لقد تحدث الأساتذة اليوم عن والدي بما يثلج الصدر ويُبلسم الجرح، وستظل كلماتهم مصدر فخر واعتزاز لنا بهذا الإرث الطيب، الذي يحملنا مسؤولية مضاعفة لنكون أهلًا لحمله والحفاظ عليه إن شاء الله، فننال ثواب برِّنا به، ونكونَ ممن قصدهم المصطفى عليه الصلاة والسلام بقوله: «إِذَا مَاتَ ابنُ آدم انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ: صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أو عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ».

ختامًا، اسمحوا لي أن أتوجه باسم والدتي الكريمة وباسم أخواتي وجميع أفراد عائلتنا بجزيل الشكر والتقدير لمجمع اللغة العربية في دمشق، رئيسًا وأعضاء، على تكرمهم بإقامة هذا الحفل التأبيني، وأن أحييَ أساتذةَ والدي الأجلاء وأصدقاءه وزملاءه وطلبته وسائر الحضور الكرام الذين كان لمشاركتهم ووجودهم أطيب الأثر في نفوسنا جميعًا.

رحم الله والدَنا الكريم، وجزاه عنّا وعن العربية خيرَ الجزاء، وأطال الله أعمارَكم، وحفظكم جميعًا ممتعين بالصحة والعافية.

والسلام عليكم ورحمة الله بركاته

❊ ❊ ❊